

مرجعيات التعدد اللغوي في الجزائر

د/ نبيلة زويش *

جامعة مولود معمري تيزي - وزو ، zouiche-nabila@hotmail.fr

الاستلام: 2021/05/21 . القبول: 2021/06/03 . تاريخ النشر: 2021/06/06 .

ملخص:

يتناول المقال حديثاً حول مرجعيات التعدد اللغوي في الجزائر؛ فنحن نعيش الظاهرة ونتابع مستجداتها سواء على المستوى الاجتماعي أم العلمي، وشغلت الكثير من الباحثين والدارسين، انطلقنا أولاً من علاقة الإنسان باللغة واعتمدنا على النص القرآني لنبين المرجعية الدينية للتعدد اللغوي، ثم انتقلنا إلى التطور الذي عرفته اللغة العربية بعد الفتح الإسلامي للمنطقة، ثم انتقلنا للحديث عن استراتيجية فرنسا الاستعمارية ورغبتها في القضاء على لغة الجزائريين واستبدال اللغة الفرنسية بها، وختمنا بالإشارة للوضع الراهن، ولم نغفل الحديث عن الجهود المبذولة لحماية اللغة العربية باعتبارها اللغة الوطنية، والأمازيغية لأنها تثبت هويتنا الأمازيغية.

الكلمات المفتاحية: المرجعية، التعدد اللغوي، اللغة الفصحى، الأمازيغية، العامية الدارجة اللغة المهيمنة، اللغة الأم.

The linguistic pluralisme in Algeria, background and implications

Abstract: This article examines the linguistic pluralism's sources in Algeria, as we are experiencing the phenomenon and we intend to

* المؤلف المرسل.

follow its developments whether on the social or scientific level, since it has been tackled by many researchers and scholars. We have started by analyzing the human relationship with language trying to rely it on the Qur'anic text to show the religious reference's role in the multilingualism. Then, we shed the light on the development of the Arabic language after the Islamic conquest of the region Also, we introduce the French colonial strategy and its desire to erase the Arabic language and replace it with the French one. We concluded by reviewing the current situation, and mentioned the efforts made to protect the Arabic language as a national language and Tamazight language because it is associated with our Berber identity.

Key words: sources, multilingualism, eloquent language, Tamazight, colloquial, vernacular, the dominant language, mother tongue.

1-مقدمة: إنَّ الاهتمام باللُّغة في مجال الدِّراسات العلمية والمعرفية واللسانية ليس حديث الساعة ، فقد انشغل الإنسان بها منذ مطلع البشرية نظراً لضرورة التواصل ، وتم الاتفاق على أنَّها من صفات الخلق ومنطق البشر من فضل الله على عباده ، وقد ورد في القرآن قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة/ 31] ولا يقف النَّصُّ القرآنيُّ عند هذا الحدِّ التَّأصيلي ؛ بل يتجاوزه لتأكيد خاصية أخرى وهي نعمة تعدّد الألسن واختلافها ، فهو القائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَأْنِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم/ 22]. ومن ثَمَّة فاختلاف الألسن آية من الله ومن شؤونه في خلقه . كما تجلّى في القرآن إشارات لإمكانية التداخل والاحتكاك بين اللُّغات وذلك بتعلم النَّاس اللُّغات بعضهم البعض ، من ذلك قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات/ 13] ، ولا يمكن للتعارف أن يحدث إلّا إذا تمكّن النَّاس من التَّواصل ، فهو السَّبيل للتَّفاهم والتَّعاش ، والمقصود منه تجاور اللُّغات وتجاوزها في المجتمعات المختلفة حيث يمكن للفرد إذ يتقن أكثر من لغة ، واللُّغات تكتسب وتعلّم بشكل طبيعي .

والمثير في هذه الحقائق الواردة في القرآن الكريم أن توجد في موروثنا الشعبي من الأمثال إشارات إلى هذا الأمر، ومن ذلك قول الناس: «كل طير يلغى بلغاه» للدلالة على اختلاف الألسن إضافة للمعنى المباشر فيه فلكل حيوان منطقته وإن كان الإنسان هو المخولف العاقل والناطق، فقد تبين التواصل بين الحيوانات، وفي حدود النوع الواحد وبين ذلك علامات التواصل التي اكتشفها الإنسان في مجتمع النحل، زد على ذلك ما ورد في القرآن الكريم عن قصة سيدنا سليمان عليه السلام مع النمل، وكان من معجزاته علمه بمنطق الحيوانات. لكننا لم نعلم بعد بتواصل النحل والذباب أو النمل وغيرها من الحيوانات باستثناء ما ورد في الحكايا التي جاءت على ألسنة الحيوانات والتي تنضوي ضمن المتخيل البشري الذي مازال يُنطق الحيوانات ويعطيها الكلمة.

ورجوعاً إلى المثل المذكور؛ نتبين توافق ما تداوله الناس في موروثنا وفكرة تعدد الألسن واختلافها، حيث يؤكد القول حقيقة لا شك فيها ومنطق هذا الاختلاف واضح في كون "كل طير يلغى بلغاه" فليسبق كل الطيور ترقق ولعل مسميات أصوات الحيوان لخير دليل على ما نذهب إليه ومن ذلك يمكن أن نمثل بـ(صهيل الحصان، وخوار البقر والنباح، والمواء والطينين والنعيق وغيرها من المسميات).

ولعل هذه الظواهر الطبيعية كافية لتأكيد ظاهرة اختلاف الألسن الطبيعية، والتي يمكن القول إنها تتجاوز البشر، وقد تأكد علمياً تواصل النبات، وتواصل الماء وربما نكتشف في المستقبل تواصل كل خلق الله ونحن لا نعلم إلا القليل من حقائق وخفايا الكون الذي نعيش فيه والله أعلم.

2. الغلبة وأثرها على اللغة : قوّة الأمة / قوّة اللغة:

إنّ حديثنا عن الغلبة ينطلق بالرجوع لما تحفظه الذاكرة من حديث ابن خلدون (ت1406م) عن علاقة الغالب بالمغلوب ومالها من تأثير، زد على هذا دون تفصيل في الأمر، وهو موضوع واسع المرامي وأهم عناصره الظروف التاريخية وقوة الشعوب القاهرة والمستعمرة وموقفها من لغة الشعوب المستعمرة والمقهورة .

ويبدو لي أن سلوك البشر يخالف في كثير من الأحيان حقيقة الخلق، فبينما خلقنا الله لتعارف بلغاتنا ومكننا من تعلّمها، تجاوزنا ذلك وظلّلنا طريقه وكان البشر سبباً في انذار لغات

شعوب حيث كانت الهيمنة والاستعمار من أسباب احتقار لغات الغير وفرض لغات أخرى، فكم من أمم وكم من شعوب بادت واندثرت لغاتها بسبب غلبة الأقوى وفرض لغته ولعل تاريخ الخريطة اللسانية في بلدان المغرب الكبير.

ولنا في قول ابن حزم الأندلسي (ت1064م) عندما ربط بين قوة اللغة وقوة الدول مجمل ما نذهب إليه من الإشارة إلى وضع اللغة بين الغالب والمغلوب، فيقول: «إنما يفيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها، وفراغهم. وأما من تلفت دولتهم، وغلب عليهم عدوهم، واستغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم. فمضمون منهم موت الخواطر، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم وأخبارهم ويبور عملهم، وإن اللغة يسقط أكثرها بسقوط أهلها ودخول غيرهم عليهم».¹

يظهر من خلال المقطع التحول الذي حدث على مستوى اللغة نتيجة الحركة البشرية التي عرفتها المنطقة، حيث كان المغرب الكبير معبراً لكثير من الشعوب التي استعمرته وفرضت لغاتها على أساس لغة الأقوى، وكان الفتح الإسلامي من المراحل المهمة في تاريخ هذه المنطقة واللغة الجارية فيها، حيث يضيف الباحث السابق الذكر قوله: «وفي هذه الظروف تفاعلت اللغة العربية في البيئة المغربية مع واقع لغوي غير منتظم أو متجانس أساسه لهجات بربرية مستعملة من غالبية السكان وقوامه اللغات الرسمية التي سادت عالم البحر الأبيض المتوسط وكانت أساس الجهاز الإداري (...) وكان لها تأثير سلبي على اللهجات البربرية إلى لغة حية أو لغة ثقافة مشتركة من القبائل البربرية»² وحقيقة الأمر وما لا شك فيه أن اللغة الأصل والأم لأبناء منطقة المغرب ومن بينهم الجزائر كانت اللغة البربرية التي يسميها الباحث لهجة والسبب في ذلك الطمس الذي تعرضت له من قبل الدّاخلين والمهيمنين بقوتهم على المنطقة كلّ هذه الظروف مهّدت لانتشار اللسان العربي بين سكان شمال إفريقيا، في المناطق التي استقرت بها العناصر العربية ونجحت الجاليات العربية في تعريب أغلب المراكز المراكز وانحصرت اللاتينية التي كانت رسمية، وانتشرت العربية باعتبارها لغة الدين انتشاراً سريعاً ومكثفاً، وأصبحت لغة التعليم والمعاملات الإدارية لدى الممالك البربرية، لكن ظلت الأمازيغية لغة شفوية، ولم يكن هناك أي صراع بينها وبين لغة السكان الأصليين، بل تعايش اللغتان معاً؛ بل إنّ محمّد بن تومرت (ت1113م) مؤسس الدولة الموحدية وأوّل من ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الأمازيغية قد اعتمد الحروف العربية في ترجمته.

وتوالى على المنطقة حملات العثمانيين الذين حاولوا استبدال لغتهم في الإدارة والدواوين، لكن الإسلام والتراث الذي كان منتشرا في كل الإمبراطورية العثمانية قد سمح باستمرار العربية وتعايشت العربية في عهدهم مع لغة المستعمر، ولم ينته أمر لغة المنطقة عند هذا الحد بعد حلول الاستعمار الفرنسي.

ومجمل القول استمرار وضع التعدد اللغوي في ظل غلبة اللغة الرسمية التي فرضتها السلطة الحاكمة في البلاد.

3- إستراتيجية فرنسا في فرنسا الجزائر.

كانت اللغة من أهم الوسائط التي كرستها فرنسا منذ بداية احتلالها الجزائر لغرس جذورها نظراً لإدراك ساستها وقادتها ومفكرها لقيمة اللغة التي تحفظ هوية الشعوب والأمم، وتميزهم فباختلاف الألسن تختلف الشعوب.

ولما كانت العربية قد ضربت بجذورها في الجزائر حيث غدت لغة الدين ولغة السلطة ولغة العلم والتعليم، صارت قناعة الفرنسيين أن اللغة هي المنفذ الذي يمكنهم من التسلسل إلى عقول الجزائريين للسيطرة عليهم وضمهم إلى الفرنسيين، وجعلهم يتقبلون فكرة التعايش مع الوضع الجديد بدءاً باستخدام الفرنسية بديلاً عن اللغة العربية في الإدارة وفي التعليم، والحقيقة أن هذه الإستراتيجية كانت ديدن الشعوب المستعمرة. ونستدل على ذلك بما ذهب إليه الدوق "دوروفيكو" في قوله: «أرى أن نشر لغتنا هو الوسيلة الأكثر فعالية لفرض هيمنتنا في هذا البلد»³.

ويظهر من كلامه إدراكه ووعيه بقيمة اللغة الفرنسية في المجتمع الجزائري لجعل الجزائريين يقبلون بفكرة الاستعمار ويتلونون بلون لغته ليصبحوا جزءاً منه، كما أنه كان مدرغاً لصعوبة استبدال العربية بالفرنسية ولم يكن ذلك بالأمر الهين واليسير، فأضاف الدوق لاحقاً: «إن المعجزة الحقيقية التي علينا أن نصنعها هي أن نحل اللغة الفرنسية شيئاً فشيئاً محل العربية بحيث نتمكن عن طريق هذا الإجراء من نشر لغتنا بين الأهالي خاصة إذا أقبلت الأجيال الجديدة جماعات على التعلم في مدرستنا»⁴.

ويبدو أن الأخطر في هذه الإستراتيجية اللغوية فكرة القضاء على هوية الجزائريين وتنشئة جيل جديد يمكن فهمه والسيطرة عليه الأمر الذي نتبينه في قول الدوق "نومال" للحكومة الفرنسية عن التعليم في الجزائر والذي جاء فيه : «إننا في هذه المؤسسة سنكون فرنسيي المستقبل .»⁵ والغريب أن فكرة تكوين جيل جديد قد تجلّت في مقولات كثيرة من ذلك مثلاً ما صنع به الأميرال دو قيدون الوالي الفرنسي على الجزائر : على الجزائر : «إنكم إذا سعيتم إلى استمالة الأهالي بواسطة التعليم، وبما تسدون إليهم من إحسان، تكونون قد قدمتم بعملكم هذا خدمة جليلة لفرنسا، فليس في وسع فرنسا أن تنجب من الأطفال، ما يكفيها لتعمير الجزائر ولذلك من الضروري الاستعاضة عن ذلك بفرنسة مليونين من أبناء البربر الخاضعين لسلطاننا»⁶.

والثابت في التاريخ عن ردة فعل الجزائريين تخوفهم من هذه المدارس وإمساك السّكان أبناءهم عن التّعلّم في المدارس الفرنسية وتوجههم إلى مدارس تعليم القرآن واللّغة العربية التي أنشئت في الزوايا وبعض المدارس الحرة التي أنشأتها الجمعيات العلميّة المواجهة لهذه الإستراتيجية ولما لاحظت الحكومة الفرنسيّة هذا التّفور وقلة عدد الملتحقين في بداية الأمر أنشأت تبعاً لذلك مدارسَ بتسميّة "المدارس العربية الفرنسية".⁷ على الرّغم من إصدار فرنسا المرسوم القاضي بعدم صلاحية اللّغة العربية للتّعليم، وكان دليلهم على ذلك وجود ثلاث لغات عربية؛ العربية الكلاسيكية (الفصحى) واعتبروها لغة تقليدية ميّنة، والعربيّة الفصيحة الحديثة وعُدّت أجنبية وهي لغة المشرق العربي، ثم تأتي العربية الدّارجة، وهي لغة التّواصل ولا تصلح للتّعليم .

وحاولت فرنسا إيجاد حلول كثيرة للسيطرة على وضع التعليم وجعله بالفرنسية، ومن ذلك كان تأكيد حاكم الجزائر على «أن إيالة الجزائر لن تصبح حقيقة مملكة فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا هي القومية، والعمل الذي يترتب علينا إنجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي»⁸، ومع مرور الوقت وإصرار فرنسا على فرض التعليم وأمام تكريس الاحتلال أو الوجود الفرنسي كأمر واقع راح الجزائريون يتخلون عن تحفظهم شيئاً فشيئاً إزاء التّعليم باللغة الفرنسية ونجحت فرنسا في تكوين نخبة مفرنسة من الجزائريين الذين ساهم بعضهم في نشر التّعليم بالفرنسية بين الأهالي.

وبدأت معالم التعليم باللغة الفرنسية تتوسع، وتخرج الكثير من الجزائريين بشهادات فرنسية وزعزت خطة فرنسا التي كانت في حقيقة الأمر متخوفة من تعلم الجزائريين وتنوير عقولهم بالعلم والمعرفة، وربما إيقاف تعليمهم عند حد تحصيل شهادات بسيطة تمكنهم من مناصب إدارية أو إدراجهم في سلك التعليم كان من ملامح هذا التخوف، وقد ذكر الأمر وورد على ألسنة بعض الجزائريين الذين أدركوا هذه الحقيقة كما ورد عند فاطمة آيث منصور التي تحدثت عن عجزها في اجتياز مرحلة معينة من التعليم ... زد على هذا انحسار التعليم في أكبر المدن وبين نخب من الأهالي.

وواجه الجزائريون هذا الإصرار بتعبئة كل الإمكانيات للإبقاء على اللغة العربية فنشطت لتعليم اللغة العربية وأرسلت بعثات طلابية إلى معاهد وجامعات في البلدان العربية مثل مصر والعراق وسوريا، دون أن نفعل عن فضل جامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس واللذين تخرج فيهما الكثير وعادوا إلى الوطن بعد تحصيل العلم للتدريس في الجزائر، ونجحت مساعي الناشطين من أجل الحفاظ على اللغة العربية.

وعمدت فرنسا لمواجهة هذه الحركة بغلق بعض الكتاتيب والمدارس وحل بعض الجمعيات وإيقاف نشاطها، بعدما تبين لها خيبة أملها في فرنسة الجزائريين، بل زاد وعيهم الوطني خلافاً لما خططت له فرنسا، وكان على رأسهم هؤلاء الذين ألفوا روايات وقصصاً حملوها ملامح وعادات وتقاليد المجتمع الجزائري، بل إنهم يوصلون معاناة الشعب ووحشية الاستعمار إلى العالم بلغة العدو، ولنا أن نستشهد بمؤلفات مالك حداد، ومولود معمري، ومولود فرعون وغيرهم ممن كتبوا روايات اثنوغرافية خيبت توقعات فرنسا.

وهكذا تحول اللسان الفرنسي إلى أداة لمواجهة فرنسا وتحولت ردة فعل الجزائريين على هذه السياسة إلى حرب موازية لحرب السلاح، واستغرقت سنوات نضال طويلة شارك فيها أبناء الجزائر الغيورون على العربية من كل الفئات، وقد لا يسعنا المجال في هذا المقال لذكر كل تفاصيل مسار مقاومة انتشار اللغة الفرنسية، وهذا عبد المالك مرتاض ينوه في مقاله الموسوم بعنوان "اللغة العربية في الجزائر (على عهد الاستعمار الفرنسي) بكثرة ما كتب حول هذا الموضوع قائلاً: «لو كنا قادرين على إحصاء ما كتب موضوع اللغة العربية في الجزائر على عهد الاستعمار الفرنسي، لنفذ بحرتمده بحور من الهداد، بل لنفذ الكلام نفسه.»⁹ وقد نمثل بما ذهب إليه في حديثه عن نشاط جمعية العلماء المسلمين من أجل الحفاظ على اللغة

العربية حيث أشاد بموقف عبد الحميد بن باديس وأصحابه وشهرة مواقفهم ومقاماتهم، في نضالهم من أجل اللغة العربية، حيث يقول: «أسست بها خمس صحف على الأقل، كما أسست أيضا مدرسة عربية اللسان في كل مدينة من مدن الجزائر، وكانت الرياضيات والعلوم والجغرافيا، تعلّم في هذه المدارس باللغة العربية، وهي التي أسست معهد ابن باديس بقسنطينة عام 1947 للتعليم الثانوي بالعربية وقد بلغ عدد طلابه في السنة الأخيرة من حياته (...)، ثلاثة عشر وتسعمائة طالب (...) وكان خير دليل وكانت صحف جمعية العلماء مفخرة البيان العربي في الجزائر».¹⁰

ولم يقف عبد المالك مرتاض عند عمل جمعية العلماء المسلمين وذكر نشاط بعض الأحزاب السياسية مثل "حزب الشعب الجزائري ومقولة "مصالي الحاج من خطاب وجهه للشعب متحدثا عن اللغة الرسمية للجزائر: « نحن نريد أن تكون لغتك العربية لغة رسمية للبلاد . »¹¹ وإعلامها بأن اللسان الفرنسي وانتشار اللغة الفرنسية في المجتمع الجزائري كان حتمية فرضتها ظروف الاستعمار الذي طال وجوده وتجذر ولهذا كان لابد أن يكون للسياسة التي طبقتها فرنسا من أثر، ومن ثمة لا يمكن إنكار استخدام الفرنسية وانتشار استعمالها في الأوساط الرسمية وحتى الاجتماعية وهي الظاهرة التي ما تزال تسم لغة الجزائريين الذين يستخدمون اللغة الفرنسية والحقيقة أن ثمرة هذه الإستراتيجية قد تجلت أيضا على مستوى الكتابة الأدبية حيث يبدو من متون الروايات الأولى (شكري خوجة في روايته العليج أسير بربروسة محمد ولد الشيخ في روايته مريم بين النخيل، و جمدلة دباش في رواية ليلي فتاة جزائرية). التأثير الواضح بكتابات المستوطنين الأوروبيين وطرحهم لمسألة الزواج المختلط الذي يفترض خلق ذلك الاندماج بين "الأهالي" والمعمرين.¹²

ومجمل القول إن سياسة فرنسا لم تلغ هوية الجزائريين وربما يكون قول مالك حداد: "إننا نكتب باللغة الفرنسية وليس بالجنسية الفرنسية" وخير خلاصة لما كان بشأن أثر تعلّم الفرنسية لتصير لغة هؤلاء ويبقوا على الرغم من ذلك جزائريين.

4- التعدد اللغوي في الجزائر بعد الاستقلال:

انتصر الجزائريون في حربهم على فرنسا، وتحقق الاستقلال على الرغم من الاحتلال الذي تجاوز القرن، وبعد أن نشأ في ظل هذا الوجود أجيال انتمت إلى الجزائر الفرنسية،

وطالت الحرب بسبب تشبث الفرنسيين واستقرارهم، وطال مقامهم حتى «صارت الفرنسية شاملة الجزائريين لغة وثقافة وحضارة، وكادت أن تصل إلى سلخ الجزائر من عروبتها وإسلامها لولا مقاومة الجزائريين وإصرارهم على رفض الذوبان أو الإدماج والانصهار في الشخصية الفرنسية والتبعية لفرنسا».¹³ ولم تتحول الجزائر إلى قطعة فرنسية، وخرجت من الجزائر وخلفت وراءها مجتمعا مزقته الحرب الضروس التي طال أمدها، وتركت خلفها تركة ثقيلة: فقر وأمية وتشرد وفوضى إدارية ... الخ .

وكانت اللغة الفرنسية من الإرث الاستعماري الذي يشهد على الأثر الناتج عن عامل الثقافة بين أفراد المجتمع الجزائري من معمرين وجزائريين أصليين حتى لا نقول "أهالي" وكان أشد الأمور وأصعبها الوضع اللغوي المفرنس في كل مرافق الحياة تقريبا بحكم السياسة التي فرضتها فرنسا وإبعادها ومحاربتها اللغة العربية باستغلالها لهيمنتها، فكان من الصعب على الجزائريين الهيمنة على كل الأوضاع المزرية ولم يكن بالإمكان الاعتماد على القطيعة مباشرة على أساس أن التهوض باللغة العربية ورد الاعتبار لها يندرج ضمن المد اللغوي واسترجاع الهوية الجزائرية التي تجعلها تنفصل، تمامًا، عن الهوية الفرنسية التي انفصلت عنها عسكريًا، وسلطة، وبقيت تابعة لها، شئنا أم أبينا لغويا، وقد اهتمت فرنسا العدوّة متابعتها للتطورات التي واجهت الدولة الجزائرية المستقلة التي اختلف الوضع فيها عن جارتها تونس والمغرب حيث «لم يترك لها الاستعمار الفرنسي معهدا علميا مثل جامع الزيتونة أو القرويين في المغرب حيث قُضي منذ السنوات الأولى للاحتلال (على مراكز الثقافة الإسلامية في كل من قسنطينة وبجاية وتلمسان والزيان ومازونة والجزائر العاصمة خرابا يابًا»¹⁴

وغداة الاستقلال، وبعد تولي هوارى بومدين (ت1978م)، كان له رؤية خاصة في المسألة اللغوية، ويقول في هذا الشأن: «... ويجب أن يكون واضحًا بادئ ذي بدء، أننا لا نجتمع لمناقشة مبدأ التعريب فذلك أمر مفروغ منه، ولا نقاش مطلقًا حول المبدأ وبساطة لأنّ الفرنسي يتكلم الفرنسية، والصيني يتكلم بلغته الوطنية (...) ومن غير الطبيعي أن لا نستعمل لغتنا الوطنية»¹⁵.

وبالإقرار التعريب، أدمجت اللغة العربية في المنظومة التربوية، وبدأ الأمر يستتب شيئاً فشيئاً، لكن رد الاعتبار للعربية لم يبلغ واقع التعدد اللغوي في الجزائر، لغة عربية توزعت بين اللغة العربية الفصحى ووجودها في التعليم والإدارة بعد قرار التعريب الشامل في الجزائر

للتخلص أو تغيير أوضاع الإرث الفرنسي، وكانت الجزائرية العامية ومازالت إلى يومنا هذا، أضف إلى ذلك استمرار الفرنسية إلى يومنا هذا ورجوع طرح مسألة اللغة الأصل، اللغة الأم لأننا في الأصل بربر ولا بد من استرجاع مكانة لغتنا خاصة إذا كان الجميع يتكلم بلغته¹⁶ ويبدو لي أن وضع اللغة في الجزائر غداة الاستقلال قد تشكل من منظورين، منظور مواصلة المهد اللغوي ورد الاعتبار للعربية، وحقيقة المعيش التي تكشف عن تعدد لغوي صار حقيقة ويشكل بطاقة هوية لغوية في الجزائر، وصار لسان الجزائري يجمع بين العربية والأمازيغية زيادة على ألفاظ الفرنسية، ومنظور ثان ارتبط باستعادة الهوية الأصل أو المفقودة نتيجة ما حدث خلال فترة الاستعمار. أو المفقودة نتيجة ما حدث خلال فترة الاستعمار وصار المنظور الثاني ضرورة لا مفر منها بقاء اللغة الفرنسية بمثابة بقاء لفرنسا، وبعد استخدام الجزائريين للغة المستعمر تشبثا بأثر سياستها التي صار من الصعب اقتلاع جذورها لأنها تجذرت في المجتمع الجزائري وصارت لغة الاستعمال التي تميز الفرد الجزائري من سواه.

5- التعدد اللغوي وإشكال الهوية :

إن ارتباط الهوية باللغة من المسلمات التي تحتاج إلى برهان ودليل نظرا لانتشار الفكرة على كل المستويات سواء العلمية أو المجتمعية أو غيرها من المجالات التي يكون الحديث فيها عن اللغة ومدى ارتباطها بمتكلميها، والجميل أن يتغنى الشعراء بلغاتهم، لغات أوطانهم ويربطون أغلب أشعارهم بهويتهم، ولنا في ما قاله محمود درويش أجمل تمثيل :

« من أنا؟

هذا سؤال الآخرين ولا جواب له.

أنا لغتي أنا

وأنا معلقة، معلقتان، عشر

من لغتي ولدت (...)

إن لغتي

أنا ما قالت الكلمات

أنا ما قلت للكلمات (...)

فلتنتصر لغتي على الدهر العدو

على شلالاتي ، (...)

هذه لغتي ومعجزتي ، عصا سحري (...)

وهويتي الأولى ومعدني الصقيل. ¹⁷»

لقد فصل الباحث المغربي عبد القادر الفاسي الفهري مفهوم علاقة الهوية باللغة وقال: «الأصل في اللغة أن تكون ترجمة انتماء إلى جماعة أو شعب أو أمة، ترفد هويتها من الوعي بالذات الجماعية، أو التاريخ- الذاكرة، أو الجغرافيا - التراب (الوطن البيئية)، الخ وكلما ابتعدت اللغة عن إثنية أو ترابية ضيقة حملت مشرعا ثقافيا (...) لقد تشكلت الأمم - الدول الحديثة تاريخا عبر اللغة، وتوحدت بها. ¹⁸»

لكن المثير للانتباه أن ارتباط بعض الشعوب بلغتهم التي حددت هويتهم كان بشكل ما بسيطا ودون تعقيد، كأن نقول إن اللغة الفرنسية قد حددت هوية الفرنسيين والألمانية حدثت هوية الألمان والصينية هوية الصينيين لكن الأمر يختلف نوعا ما بالنسبة لبعض اللغات ويمكن أن نمثل أولا باللغة الانجليزية التي تجاوزت حدود موطنها الأصل انجلترا وتأصلت في أمريكا وانتشرت عبر العالم وصارت لها قوة عالمية نتيجة انتشارها وارتفاع عدد متكلميها وما إلى ذلك. وعلى الرغم من هذا الوضع العالمي الذي فرضته بقوة وجودها فإنها ترتبط بهوية الإنجليز كمكلمين أصليين وبهوية الأميركيين لأنها لغتهم الرسمية والمتداولة والمهيمنة على كل لغات العالم.

لكن الأمر يختلف بالنسبة للغة العربية لأنها "لسان جماعة لسانية واسعة كبيرة لا ترتبط بقوم دون قوم، ليس هناك قومية لسانية عربية على غرار القومية التي أقامها الإيطاليون (...) الجماعة العربية تكونت باللسان العربي وبفرصة تاريخية. وهذه الفرصة هي انتشار الإسلام. وليست العروبة عروبة الأعراق. وليست لغة شعب دون شعب. فهذه هوية واسعة. ¹⁹»

ولا بد من الاعتراف بأن وجود اللغة العربية في كثير من الأقطار قد هيمن على لغات أخرى واستبدلت العربية بلغات أصلية في الإدارة والتعليم كما هو الشأن بالنسبة للمغرب

الكبير، وربما هو الأمر الذي نخالف فيه رأي عبد القادر الفهري الذي يقول: «قوة اللغة العربية تأتي من كونها ليست مرتبطة بهوية ضيقة، ولا بهوية ابتلاعية. لم تقم بابتلاع اللهجات أو إماتتها. ولكنها تعايشت معها. وليست العربية ذات هوية إقصائية»²⁰ وإن كان وجود العربية غير إقصائي، فهيمنة العربية على اللهجات الموجودة قد طمس هذه اللهجات ولم تتمكن من التطور والارتقاء إلى مستواها زد على ذلك جعلها رسمية ولغة سلطة يمكنها من الهيمنة ويحدث بذلك فعل الإقصاء وإن لم يكن مقصوداً كما ظهر في حديثنا عن فرنسة الجزائر.

ولعل الأوضاع العالمية الراهنة هي التي زعزعت بعض الأحوال التي عرفت الاستقرار والثبات لفترات زمنية طويلة ومن هنا يمكن التمثيل بأزمة الهوية التي طرحت في المغرب العربي ونشاط النقاش حول اللغة وهوية الشعوب البربرية والحديث عن التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية وترسيم اللغة ودسترتها وكل ما إلى ذلك من أمور مستجدة في راهن هذه الشعوب ولعل تجربة الجزائر خير دليل على ما نذهب إليه وهو الأمر الذي تم الحسم فيه باعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية واعتبار الأمازيغية لغة وطنية مرتبطة بهوية الشعب الجزائري الذي يعود في أصول هذا البلد إلى البربر، والسكان الأصليين الذين عمروا البلاد في تاريخ وجغرافيا هذه المنطقة.

ويمثل راهن الجزائر اللغوي نموذجاً لطرح إشكالات التعدد اللغوي وقد صار موضوع اللغة من المواضيع المهمة والمستعجلة وقد اعتنت الدولة بهذه القضية تقادياً لما يمكن أن ينجز عن تعارض بعض الآراء واختلافها، ولا بد من الإشارة في هذا السياق للمجهودات التي بذلها الباحث الجزائري صالح بلعيد سواء على مستوى مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر الذي يترأسه أو على مستوى المجلس الأعلى للغة العربية الذي صار على رأسه وينشط في إطار حماية اللغة العربية والحفاظ عليها وقد كان لموقفه حول اللغة العربية ووجودها في الجزائر قيمة كبيرة وهو المتحدث عن اللغة الجامعة.²¹ التي توحد الأمة وتحفظها ووجودها الذي لا يلغي الحقيقة التاريخية المرتبطة بتاريخ المنطقة، ويتجلى ذلك في قوله وحديثه عن ضرورة الاحتفاء باللغات الوطنية، من ذلك: "الاحتفاء باللغة الأم *ellenretam euganL* (بصيغة النعت) وهذا يعنى اللغة التي يستعملها الإنسان (...) واللغات الأم في الجزائر هي: المازيغيات + الدواج. ويحتفل العالم باللغة الأم في 21 فبراير من كل سنة ويضيف مؤكداً على ضرورة الاحتفاء باللغة الأم (*elleiciffo eugnal*) (بصيغة الصفة) وهي تلك الجامعية ولغة الدستور

وقد تكون هي (لغة أم واللغة الأم) في ذات الوقت .²² ومن خلال تطرقه لموضوع العولمة وأثرها على الهوية حيث يقول : «على المعلم أن يكون واعيا بمسألة الهوية التي تحتاج إلى تحسين لتكون مانعة، لأن هويتنا مغزوة بثقافة أورو متوسطة، ثقافة فرنسية»²³ ويضيف إلى فكرة الوعي بالثقافة الأجنبية التي تهددنا هناك فكرة "تعزيز المواطنة اللغوية" ويقول: « إن التربية المعاصرة والعولمة اللغوية لا تقدسان اللغة الأم / لغة الأمة يقدر ما تنطرن إلى نفعية ومردود اللغة، كما تنظران إلى اللغة بما لها من علمية ووظيفة.»²⁴

ويختتم كلامه بالإشارة إلى ضرورة أخذ الحذر من المد العولمي الذي يمكن أن يقضي على الهوية العربية إذ لم يهتم العرب بشأن لغتهم التي رفعت قدرهم بين الشعوب ويصل إلى القول بأن «العرب جميعا لا حياة لهم بدون هويتهم اللغوية الممثلة في العربية وكان عليهم العمل على أن تكون حاضرة كأداة ووسيلة وجود، وبدونها لا يساوون جناح بعوضة، وبدونها لا يصلون إلى صنع إبرة»²⁵

كما يشير عبد القادر الفاسي الفهري إلى قوة اللغة العربية التي تفرض وجودنا عالميا بوجودها وحضورها ومكان قوتها في ألفاظها وتراكيبها التي تسمح لها بالحضور والمشاركة في مسار الحضارة ومن ذلك استعمالها في أحدث التقنيات « هذه اللغة حاضرة بقوة في المجرة اللغوية العالمية وهذا لا يعني أن الأمر انتهى، لا بد أن يخطط لتجاوز كل عناصر الضعف فيها.»²⁶

وخير ما يمكن اعتماده مرجعية على قوة اللغة العربية في زمن العولمة مع هيمنة شبكة الانترنت على دورة الحياة أن عدد مستعمليها في تزايد مستمر، وحسب تقرير صادر عن الأمم المتحدة، فقد بلغ عدد مستخدمي الإنترنت من العرب 96 مليون شخص²⁷، لكن يشير التقرير نفسه إلى أن المحتوى العربي على الإنترنت لا يمثل سوى 3 بالمائة من إجمالي المحتوى العالمي.

6-خاتمة:

لقد كثر الاشتغال على اللغة كظاهرة ترتبط مباشرة بمسيرة الأحداث المهمة في العالم ويظهر من كثرة البحوث المنجزة حول هذا الموضوع إن إشكالية التعدد اللغوي ذات مرجعيات

متجذرة في تاريخ البشرية ومرتبطة بتاريخ الشعوب والأمم وتبقى ظاهرة طبيعية قد يكثر الحديث عنها وقد تصل مناقشات العلماء إلى إلغاء الجدل القائم حولها باعتبارها ظاهرة طبيعية ونقول كما قال ابن حزم: «إنما يقيّد لغة أمة علومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها، وأن اللغة يسقط أكثرها بسقوط أهلها ودخول غيرهم عليهم»²⁸. وآخر قولنا دعاءً بأن يحفظ الله لغتنا وأن يزيكها إلى أعلى المراتب وذلك بالاهتمام بها لأن النقص ليس في اللغة العربية بل فينا.

7-الهوامش

¹ - ابن حزم الأندلسي، الأحكام في أصول الأحكام، نقل عن عبد القادر الفاسي الفهري السياسة اللغوية في البلاد العربية، دار الكتاب الجديد المتحدة 2013، ص: 6.

² - المرجع السابق، ص 59.

³ - Yvonne Turin, Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale : écoles, médecines, religion, 1830-1880, Ed. François Maspéro, Paris 1971, p 148

⁴ - محمد عابد الجابري، السياسات التعليمية في أقطار المغرب العربي، ط 2. عمان: 1990، منتدى الفكر العربي، ص 111.

⁵ - Yvonne Turin, Affrontements culturels dans l'Algérie Coloniale , Op.Cit , p 40.

⁶ . Christiane Achour, Abécédaires en devenir: ideologie coloniale et langue française en Algérie , Ed :E.N.A.P, Alger, 1985 , p 149 .

⁷ - ينظر: محمد بعزیز، حول لغات التعليم، *TTP P// neewkaT-rettel swew -LmTh 09*

الجزائر 24 — 12 — 2011

⁸ - ساطع الحصري، ما هي القومية؟ دار العلم للملايين، د.ط. بيروت: دت، ص 73.

⁹ - عبد الهالك مرتاض، "اللغة العربية في الجزائر (على عهد الاستعمار الفرنسي)"، مجلة اللغة العربية الصادرة عن المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر: 2005، مج 7، العدد 2، ص ص 124، 125.

¹⁰ - المرجع نفسه، ص 129.

¹¹ - المرجع نفسه، ص 129.

¹² - المرجع نفسه، ص 129.

- ¹³ - ينظر علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مطبعة الرسالة القاهرة: 1984. ص: 161.
- ¹⁴ - تكي رابح عمامرة، مكانة اللغة العربية في التعليم العام والعالمي والجامعي من عام 1962 إلى نهاية عام 1989م، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، 2005 ص: 339.
- ¹⁵ - المرجع نفسه، ص 341.
- ¹⁶ - المرجع نفسه، ص 345.
- ¹⁷ - محمود درويش، من قصيدة "قافية من أجل المعلقات". نقلا عن عبد القادر الفاسي الفهري، السياسة اللغوية في البلاد العربية، ص: 18.
- ¹⁸ - المرجع نفسه، ص 36.
- ¹⁹ - المرجع، ص 40.
- ²⁰ - المرجع نفسه، ص 40، 41.
- ²¹ - صالح بلعيد، "اللغة الجامعة"، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، الجزائر: 2015، ص 150.
- ²² - المرجع نفسه، ص 154.
- ²³ - المرجع نفسه، ص 154.
- ²⁴ - المرجع نفسه، ص 154.
- ²⁵ - المرجع نفسه، ص 154.
- ²⁶ - عبد القادر الفاسي الفهري، السياسة اللغوية في البلاد العربية، ص 41.
- ²⁷ - ينظر: "حقائق وأرقام عن المحتوى العربي على الإنترنت" جريدة الغد، جريدة إلكترونية، خ النّشر: 06 أكتوبر 2019، تاريخ الاطلاع: 2021/01/05، الموقع الإلكتروني: <https://alghad.com>
- ²⁸ - عبد القادر الفاسي الفهري، السياسة اللغوية في البلاد العربية، دار الكتاب المتحدة، ط 1، لبنان: 2013، ص 37.